الهيام بالذات

بحث نفسي

في الاساطير اليونانية ان نرجساً Narcissus كان فتىً غُرانقاً هيّأت له الطبيعة من وسامة الوجه وقسامة الملامح ما لم تهيئه لغيره، فكان فتنة العين وبهجة الخاطر. ولكن صروف الدهر أبَتْ ان تهيىء له ليجتلي هذا الجمال الا ذات يوم اذ رأى عن كثب غديراً صافياً فيممه ليرد وشاهد هناك على صفحته الصقيلة صورتَهُ معكوسة. فرأى — اذ شاهدها — ما بهره وأفعم نفسه حسرة على هذا الجمال الضائع. واثنى شارد اللب مبلبل المشاعر، ووقع من نفسه في نفسه ما ضيّق افق نظره والهاه عن الحياة وصرفه عن التفكير الا بهذا الجمال الذاهب سدًى. وتولاه ما يتولّى العاشق الولهان عادة من سهوم ووجوم، وتضاعفت حسرته على هذا الجمال القريب البعيد، وانتهى اخيراً الى ما ينتهي اليه اكثر العشاق المدلهين من ضعف وهزال أودى بحياته فراح ضحية محاسنه

وهكذا انتهت حياة هذا العاشق الغريب، ولكن اسمه اضحى علماً لكل اعجاب بالنفس مسرف. وقام علم النفس الحديث يستنطق بجرأة غوامض الميول النفسية ويسبر اغوارها ويتحسس نوازعها فلحظ هذا الميل ووهبه من عنايته ما صيّره موضوعاً تتجه اليه نظرات الاستغراب والتفحّص. وقد وجّه فرويد وتلامذته عنايتهم الى دراسة هذا الميل، فانتهوا — كعادتهم — الى نظرية تردُّه الى الشذوذ الجنسي، وهي الناحية التي يبالغون عادة في صبغ الوانها وحشد كل ما يتسنى لهم حشده من مظاهر النفس فيها. واضحى اسم هذا العاشق وما يُشتقُّ منه في لغة فرويد مرادفاً لناحية غريبة من نواحي الشذوذ الجنسي

***

ولو كان هذا الميل بمعناه العام، وهو الهيام بمحاسن النفس مقصوراً فقط على ما يتّصل الى الجنس بحق لنا ان نحسبهُ ميلاً شاذًّا لا يصيب جميع الناس على السواء؛ ولكن الواقع الذي لا ينكره الاختبار ان الهيام بالمحاسن الذاتية ايما كان نوعها والانقطاع الى التفكير فيها والاهتمال النسبي او المطلق لكل ما عداها، هو ميل عام في صميم الحياة البشرية — تختلف

النسبة الناس فيه باختلاف امزجتهم واستعدادهم والبيئات التي تلابسهم ، ولكن شخصاً واحداً لا يعدم نصيباً من هذا الميل قلَّ ام وفُر هذا النصيب. واذا ظهر هذا الميل في بعض الناس بمظهر المبالغة في النمو فذلك انه قد يكون من احوال المحيط او من احوالهم الشخصية ما هو السبب في هذه المبالغة في النمو . فالثابت ان المرض يقوّي هذا الميل في الناحية التي يكون فيها الهيام بالنفس في جزء من اجزاء الجسم . فالمريض في زمن المرض او بعد الانلال لا يكاد يعنيه من امور الحياة الا ان يرى وجهه تعود اليه نضارته وبهجته اللتان كانتا له قبل المرض ، وتصبح المرآة اداة ملازمة لهُ في من حياته الى ان تعود اليه صحته وتلهيهُ مهام الحياة عن التوجه بانتباهه الى هذه الناحية في جسمه . وعلى كل ليس المرض هو الحافز الوحيد لاثارة الاشفاق على الجسم . ويكفي ان يتناول مؤثرٌ من المؤثرات شخصية امرىء بالتبديل حتى تثور ثائرته فلا يستقرّ له قرار الى ان تعود اليه معالم شخصيته . وقد جاء في كتاب الف ليلة وليلة ان حسن الاسكاف بُدِّل بطريقة سحرية شخصاً آخر هو الخليفة عينه . فأضحى نافذ الكلمة يأمر وينهي ويتمتع بكل ما يتمتع به الخليفة . ولكن خطر له ، وهو في ايّان نشوته ، انه اصبح شخصاً آخر ولم يعد حسن الاسكاف ، فثارت ثائرته عند هذا الخاطر وأخذ يتلمس نفسه مهتاجاً الى ان ايقن انهُ لم يزل هو هو لم يتغير . عندها طاب له ان يمضي في متعه ولذاته . وهذا الذي احسَّه حسن الاسكاف يحسُّه كل شخص حينما تُهدَّد شخصيته على ما نعتقد . فهذا الجسم الذي يصحبنا ما يصحبنا ويعاشرنا ما يعاشرنا ويلوِّن معنا من حلو الحياة ومرّها ما يلوِّن يعزُّ علينا ان نبدّله حتى ولو حقق هذا التبديل اقصى خيالاتنا وأبعد احلامنا . فنحن — كما يقول نتشه — لا يطيب لنا العيش ولا نستشعر السعادة الا في حدود شخصيتنا . ليس هذا فقط ، بل نحن كثيراً ما نسعى ونتشوَّف لان نصبغ الاشياء التي تحيط بنا بصبغة منتزعة من شخصيتنا . والفنان هو اقدر الناس على ذلك ، لان في يده الوسيلة التي تعينه على ذلك . ويذهب بعض النقّاد الى اننا إنَّ درسنا مخلّفات الفنانين لعظام نجد ان اصحابها يميلون ميلاً ملحوظاً ليظهروا انفسهم في صورهم وتماثيلهم . ويقول مرجشكي ان ليوناردو داڤنشي قد اثبت لنا على قماش صورة الجوكندا الشهيرة ملمحاً غير يسير من شخصيته ذاتها

***

وقد يصاب المرء بعاهة جسمية ملازمة فيكتنفه من الالم والحسرة ما يجعله يزداد توجهاً الى السالم من جسمه يوليه عبادته وهيامه ؛ كالمرأة التي تفقد احد ولديها فتزداد عكوفاً على الآخر وتعلقاً به . ولا نستطيع ان نتصور اعجاب لورد بيرون بوجهه ذلك الاعجاب الشديد الا اذا ادركنا أنه كان اعرج يحاول جهده ان يُضفي بجمال وجهه على هذا العرج

وقد لا يرفق المصاب بعاهة جسمية — كما ونق بيرون — الى بديل من العضو المصاب ليُضفي باكتماله على ذلك العضو ، فيتجه الى الناحية النفسية او العقلية يوليها هيامه وافتتانه . والتعاظم وهو ما يسمى بالانكليزية Megalomania هو شكل واضح من اشكال الهيام بالنفس العقلية او النفسية . وهو — لذلك — اظهر ما يكون في اصحاب العاهات الجسمية . فترانهم بعد ان تخذلهم اجسامهم يتوجهون الى الناحية النفسية او العقلية يتحسسون كل صفة من صفاتها ويقيسون كل ملكة من ملكاتها . فاذا ظهر لهم انهم على شيء من البروز في بعض هذه الصفات او الملكات عمدوا إلى الغلو في تقديرها وبالغوا في التفطن اليها واكثروا من التحدث عنها . ولا يُخامرك انهم في هذا يقولون خلاف ما يعتقدون او يقدرون لأنفسهم فهم مخلصون في ذلك كل الاخلاص ولا يهمهم اكتسبوا عطف الجمهور وتقديره ام خسروه كما في كثير من حالات الدفاع عن النفس الذي يتجه غالباً الى ارضاء النفس عن طريق ارضاء الغير عنها . ولهذا السبب عينه لا نشعر بهذا الميل في سلوك الناس واضحاً . فهو غالباً لا يتخذ صفة الاندفع والبروز كالدفاع عن النفس الذي يتحدّى غالباً مشاعر الناس ويثير انتباههم

***

على اننا نود ان نشير الى ان غير المصابين بعاهات جسمية لهم نصيبهم من التعاظم ايضاً . فالممثل الذي يبدع في تمثيل احدى الشخصيات التاريخية البارزة يجد من نفسه ميلاً الى صاحب تلك الشخصية ويستشعر كثيراً من الارتياح في اعادة مظاهرها في سلوكه . وهو اذا اعادها لا يعيدها شاعراً بانهُ ممثل مقلّد ليس غير ، بل هو يعيدها وكأنها جزء متمكّن من سلوكه ، فهذا نابليون في مظهره وذاك هنري الثامن في مسلكه وثالث لويس الرابع عشر في احاديثه وهكذا

وقد تقترن نزعة الدفاع عن النفس بالهيام بالذات . ولكن من السهل التفريق بينهما فالدفاع عن النفس يتجه الى ارضاء الناس واكتساب تقديرهم والهيام بالذات يتجه الى النفس في جميع اشكاله . وهذا يفسّر لنا اجمالاً لماذا لا نرتاح الى النظر الى انفسنا في صورة زرية او وضع شاذ رغماً عن ان عيناً واحدة لا تَرانا . وقليلون حقاً هم الذين يستمرئون الوقوف امام مرآة محدّبة او مقعّرة تعكس صورهم شوهاء مقلوبة رغم اقتناعهم بان هذه الحالات من التشويه هي حالات زائلة غير ملازمة . وقد ينفرد احدنا بنفسه في محل قفر فيجد من نفسه ميلاً الى اطلاق هذه النفس على سجيتها ويحب ان يتخلّص ولو قليلاً من اسر العادات والتقاليد ، فيشرع يأتي من الاصوات بكل نابركريه ومن الحركات بكل شاذ غريب . ولكن لا يلبث ان يثوب الى رشده بعد ان كان اقرب الى الخيال والجنون منهُ الى العقل ، ويستولي عليهِ شعور عميق بالخجل يعيده حالاً الى الاتزان والسكينة او الحركة في حدود الاعتدال . ونعتقد تمام الاعتقاد ان

الذين صوروا لنا اناساً انقطعوا عن العالم وبانقطاعهم عنهُ اهملوا نفوسهم لم يصوروا لنا الطبيعة البشرية تصويراً صادقاً . ويقيننا انهُ لو اتيح لروبنصن كروزو موسى للحلاقة ومرآة يرى على صفحتها سحنته وتوفّر له قدر معقول من الاطمئنان الجسمي والعقلي لما سمح لنفسه ان تنمو ذلك النمو الحر الذي يصفه لنا دي فو Defoe . فسلطة هذا الميل عظيمة ليست بالضئيلة والمحدودة غير انهُ مما يلطف من هذا الميل ويفشأ من حدته ان لا كثرة من شواغل الحياة ومهامها ما يصرفنا عن التفكير في نفوسنا والانعكاف عليها . فنحن انسى ما نكون لمحاسننا او مساوئنا حينما ندفع في تيار الحياة الشديد غير ملوين على شيء . ونحن اقطن ما نكون لهذه المساوئ او المحاسن حينما نكون في عزلة او شبه عزلة عن تيار الحياة الجارف . ومن هنا ان المرأة ارسخ قدماً من الرجل في هذا الميل . فانق نظرها الضيق وقلة مشاغلها العامة قد نسيا من نفسها لنفسها معبوداً . ومن هنا مقام المرآة في حياة المرأة . ولم تبتعد المرأة عن انوثتها المستعذبة الا حينما انساقت مع تيار الحياة الجارف . ولذلك عادت لا يهمها كثيراً الثناء على جمالها وعاد الانتقاد لبعض من اعضائها لا يستدر دموعها . وبالاجمال اضحى لا يرضيها ان تقف من الرجل موقفها القديم — موقف الصبي المدلل

ومتى تزوجت المرأة وانجبت البنين ازدادت بعداً عن العكوف على نفسها وتحوّل اعجابها بنفسها الى الاعجاب بزوجها وبنيها . واذا انتقدتَ طفلاً بحضرة امهِ فلا تنسَ انك بهذا تنال من امه قبل ان تنال منهُ . لهذا كان خير ما تكتسب بهِ عطف الام ان تثني على بنيها ولا تغالي اذا قلنا ان جزءًا غير يسير من عاطفة الامومة مردُّه هذا الميل

***

ومما يدلُّ على التحول الذي طرأ على خلق المرأة ايضاً انها أصبحت ارحب صدراً لنقد واقبل للفكاهة من ذي قبل . والفكاهة هي من اوكد الوسائل لتقليل حدة هذا الميل . فالماجن الفكه يتجه بجونهِ وفكاهتهِ الى التقليل من قيمة الحياة والوراية عليها بحيث يهوّن على الناس مقدار ما يمنكون منها ومقدار ما يخسرون . والمالح والساخر — كما يقول احد الكتاب — سواء : ذاك يأخذهُ بحد الحسام وهذا يأخذه بحد السنان ، الا ان الواحد يأخذهُ ليستولي عليهِ والآخر ليحتقره ويزري عليهِ . ومما يحبب صاحب الفكاهة الى الناس انهُ لا يسخر من الحياة والناس الذين يستميتون في سبيلها فقط ، بل هو يسخر من الحياة ومن الناس ومن نفسهِ على السواء . وهذا ما يجعل الفكاهة مستحبة مقبولة عند اكثر الناس وان كانوا هم مقصودين بها